وفيق رؤوف

البَديل

في البدء كنت واهما .

كان ظني معتلا : الصدفة وحدها هي التي اوجدتني في هذا الفار الذي يسميه صاحبي وبقية أبناء جنسه « الفم » . لا زلت أسير شهوة تبحث لهذا الموضع اللحمي تعريفا آخر ! الميناء السري مثلا ، حيث ترسو هذه السفائن الصغار البيض على الضفتين ، العليا والسفلى بنسق وثني .. الواحدة بحذاء الاخرى . هذه السفائن التي تسافر ولا تسافر !

لكنني الان ـ فقط ـ طفقت أدرك ان ليس بالصدفة وحدها ينوجد الشيء ، ان لم يكن ذا قابلية غريزية للانتماء والنمو ، وقد أنوجدت على هذه الحال في فك صاحبي السفلي مع بقية اقراني دون ان يبدو لي أنا ذا الظن المعتل ـ ما يختصر شأني او يهبني امتيازا ما : تسعى اليّ اللقمة فأرتد ذعرا من ان يكون نوعها ايذائيا ، لكنني لن أتوانى عن أداء واجبي ـ الجرشي ، وايصالها بمؤازرة « اللسان » الى الحلقوم .

آه ! كم أقلقتني هاته اللحمة التي تمتد فوقي كخيمة ساقطة ، خاصة عندما يطفق صاحبي بالكلام ، فهو كثير اللغو وجشع النفس لا يبارح المآكل الا بعد تخمة فاضحة وتجشؤ كريه ، ولا ينقطع عن ثرثرته الا وتتشنج حباله الصوتية ويصرخ به التعب : صه !

عرفت الحسد لاول مرة عندما سمعت من يقول لصاحبي :

ـ اسنانك بديعة !

كنت أدرك القصد المنسلخ عني ، اذ ليس تظهر للعين سوى « القواطع » و « والانياب » ، لكن دوري ك « سن » داخل هذا الميناء اللحمي لم يكن يقل أهمية عن دور « الظواهر ـ البديعة » ، بيد أن اختفاء موقعي عن مرمى النظر انتزع أدنى قيمة لي تستحق التنويه !

مكثت مستقرا في موضعي ، حيث يمتد جذري الى العمق كشجر جبار . اسمع عن الكلاليب وطبق الزوائد المهملة فاعجب كيف تقوى الكلابة على من كان في مثل موضعي وانغرازي ، ولشد ما كان يرعبني هذا السرطان الذي يقال له عن سوء تقدير لغوي « حلوى » ، فكل قطعة منها كانت تزعجني وتتعبني اكثر مما تتعب صاحبي ، فنسهر الليل معا ، لكن شراهته تنسيه ما قاساه في يوم فائت فيعيد الكرة مع قطعة أخرى ، فيسعد حينا ثم نشقى معا حتى ادركني التعب وعجزت عن المقاومة وتعب هو الاخر من الالم .

* * *

كانت لحظة لا تنسى حينما ادرك صاحبي عيادة طبيب ، فرأيت للمرة الاولى هذه الالات المعقدة مرصوفة فوق رف زجاجي وآثار دم مبصوق فأخترقني الجزع وتمنيت جناحا مهربيا من هذه المجزرة ، لكن التعني أجهضه الموقع الذي ظللت مزروعا فيه !

جلس صاحبي على المقعد ، و .. شكاني الى الطبيب الذي بدا متبلدا كنبات الصبار ، وهالني غزو حزمة قاسية من الضوء الصناعي للميناء ، ثم .. امتدت اليّ آلة تنتهي بدبوس دقيق يخترقني حتى أغمي عليّ من الالم بينما كان صاحبي يتمرغ مع الطبيب في حديث مشعب حول مصيري ، وسمعت ايضا كلمة « قلع » ، لكنني لم أع لها مغزى يخيفني ، وفجأة جاءتني مطرقة تجريبية تختبر مدى ثباتي فتوجعت للضربة ، وكانت ثانية و .. ثالثة و .. لم أصرخ ، كنت ادرك أن ليس لي صوت يسمع ولا صرخة تستجاب ولا استغاثة ، آثرت الصمت ، علّه يكون الرد على هذا الغباء الذي يكتنفني : كنت محاطا بجدران صخرية ذات جذور صماء . مرت فترة صمت قبل أن يغرقوني بقطنة بليلة بسائل اصفر خادع لم يتفاعل معي اطلاقا .

وأدركتني ثانية الالة التي تنتهي بدبوس دقيق ، وتبخر مني الخدر تماما عندما سمعت الطبيب يحادث صاحبي :

ـ ثمة ثقب ! انه السوس !

ورد صاحبي مستفهما :

ـ والحل ؟

هز الطبيب منكبيه :

ـ سنرى بعد .. علاج .

ـ كم سيدوم ؟

ـ أيام .. أيام ..

ـ وبعدها ؟!

ـ سنرى ...

وطفقا يتحادثان حول المرض الذي يسكن في داخلي ، وصعقتني الدهشة كيف أنني « مثقوب » منذ مدة طويلة دون ان يكون لي ادنى علم بذلك :

ـ لعن الله (الحاوي) انها أس البلاء!

رد صاحبي بنفاق أبغضني حتى الجذر :

ـ لكنني لا أتناولها الا نادرا جدا !

رفع الطبيب يده اليمنى واشار بأصابع ثلاث :

ـ أمامك ثلاثة حلول !

وقبل أن يبادر صاحبي ـ كعادته ـ بالاستفهام ، قال الطبيب :

ـ .. اما ان توافق على حشو « الثقب » باحد المعادن السائدة او توافق على تغليفه بأحد المعادن السائدة ايضا ، او توافق على ...

ـ نعم ؟!

ـ على القلع !

ـ وهل لي بمعرفة انواع هذه المعادن ؟

زفر الطبيب بضيق لم أفهم له مبررا ، قبل أن يجيب :

ـ السائدة عندنا : الرصاص ، الفضة و ..

وتذوقت من خلال كلامه طعم الاغراء حين صار يسهب في ايضاح مزايا كل معدن على حدة .

وتملكني الضحك وأنا أتخيل نفسي مرتديا احد المعادن السائدة ، لكن سرعان ما ضربتني الحيرة حول ما اذا سيكون بمقدوري التنفس وأنا قابع داخل هذا الرداء المعدني !

أوما الطبيب لصاحبي بالنهوض ليطلع على عينات من هذه الاردية كانت مرصوفة بنسق ديكوري فوق رف داخل دولاب زجاجي يتكىء على حائط الزاوية القريبة من شرفة تطل على المدينة الكبيرة التي تبدو من هذا « الفوق » كقرية محدودة جدا يمر عليها الجراد .

* * *

انهمك صاحبي بنظرة سمكة ميتة من عينيه المجانيتين ، للمدينة ـ القرية بلا معنى معقول ، قبل أن يلتفت الى الطبيب ليقول :

ـ ما هو ارخص هذه المعادن ؟!

ثم كمن استفاق اكثر :

ـ يا جاهل ! الضرس لا يرى ، فلا ضرورة لطلاء واجهة خلفية لا تنوشها العين !

أحسست تماما أن السائل الاصفر الخادع قد أنقشع عن سطحي وطفقت اغتسل بماء العيون المملح وأرتج في مكاني كراقص باليه مهووس حتى اخذ صاحبي بالانين وتهالك على المقعد وهو يستغيث ضاربا الكف بالكف :

ـ سأموت !

دنا الطبيب وأغرقني كرة أخرى بذلك السائل اللعين الاصفر ، لكنه ظل عاجزا ليس فقط عن التفاعل معي بل مع ماء العيون المملح ايضا ، وادركت ان لا فائدة ترجى من النحيب فأخلدت الى التثلج !

ـ والان ؟!

ـ بعض الشيء !

واتفقا على موعد للقاء حول مصيري ، لكنهما لم يقررا صراحة نوع هذا المصير ، وهذا مما ضاعف من قلقي ، لكنني ـ مبدئيا ـ احتفظت دراية بأن لا مفر من مجابهة احد المصائر الثلاثة : الحشو المعدني او القلع او التغليف المعدني . وقبل ان يخطو صاحبي آخر خطوة له عن باب العيادة التفت الى الطبيب بلهفة يسأله :

ـ لم تجبني عن ارخص المعادن !!

ضحك الطبيب عن اسنان رديئة تفجر خزان الرثاء :

ـ الرصاص .

ثم كمن يتحدث مع نفسه :

ـ « آخر خبر (صحي) فاجأني ان كل عضو مهما يكن حجمه وموقعه ويقوم بأداء دور ما ، لا بد ان ينمو له فم وفم السن هو هذا الثقب الذي ينوجد نتيجة للمرض !! »

* * *

.. ومرت الايام المحددة ..

ونهض صاحبي ، على غير عادته ، باكرا و .. تمرحض و .. اغرق الميناء اللحمي بالماء البارد فأوجعني في العمق ، وكنت حائرا جدا حول ما سيؤول اليه مصيري الذي كان مضببا كالافق الذي يرى ولا يرى ، لكن صاحبي لم يعرف الخجل أبدا وهو متجه الى الموعد .

لنعن

صدر حديثا
عن دار الطليعة

* العين ذات الجفن المعدنية
(رواية)
د . شريف حتاته

* حول الخط الاستراتيجي العام لحركتنا وثورتنا
ناجي علوش

* مقالات في الاشتراكية
د . جمال اتاسي

* ٦ تشرين بين التسوية والتحرير
د . الياس فرح

* الف باء انشيوعية
بوخارين ـ بربو براجنسكي
ترجمة فواز طرابلسي

دار الطليعة ـ بيروت ص . ب ١١١٨١٣